الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

الديمقراطية الليبرالية بين التنظير العدمي والممارسات الجاحدة للآخر

The Democratic crisis between Nihilism and the Unifying Practices of the Other

Dr. Fatima SAYED
Hassiba Benbouali Chlef University - Algeria

د. فاطمة صياد
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف الجزائر
sayedfatima81@gmail.com

ملخص

نظريا، تبدو الديمقراطية ذلك المجال الأمثل للغيرية، فالأركانُ التي تتأسّسُ عليها تقتضي ضرورةَ معاملة الناس جميعهم على قدم المساواة في الكرامة والحقوق، وتتضمّنُ الدعوةَ الصريحة إلى أن يُعامل بعضُهم بعضا بروح الإخاء والاعتراف بالآخر ونكران الذات عند اللزوم.

ولكن من حيث الممارسة نصطدم بنموذجين لنظام الحكم الديمقراطي، لا ديمقراطية واحدة، وهنا يكشف واقعُ الحال عن حقائق مخالفة تماما للمستوى النظري، إذْ يبدو جليا أنّ الديمقراطية في تجليّاتها تحولت إلى أداة لاستغلال الآخر ونفيه، وبالتالي فلن تكون إذن أفقا حقيقيا للغيرية دون توافر شروط وأسباب كافية على مستوى الممارسة، وهذا الذي يقصد مقالنا إلى بيانه، مركزين على النموذج الليبرالي، وذلك مادام الليبراليون يزعمون ،ضمن ما يزعمون، الدفاعَ عن الديمقراطية الحقيقية، وتصديرها إلى مَنْ لا يعرفُ قيمتَها تلك، انطلاقا من مشكلة مفادها: متى تكون الديمقراطية فضاء أمثل للغيرية؟

الكلمات الدالة: أزمة؛ ديمقراطية؛ الاختلاف الثقافي، الآخر، التعايش، الليبرالية، الصدام الحضاري.

Abstract

Theoretically, democracy seems to be the optimal domain of heterogeneity, as the pillars upon which it is based require that all people be treated equally in dignity and rights and includes the ability to treat each other in a spirit of brotherhood, recognition of the other, and self-denial when necessary.

But in practice we clash with two types of democracies and not one democracy, and here the reality of the situation reveals the facts completely contrary to the theoretical level. It is clear that democracy in its manifestations has become a tool for exploiting and denying the other. Consequently, it will not be an extension of the non-existence without sufficient conditions and reasons at the level of practice, which is what we mean by its statement. Focusing on the liberal model as long as the Liberals claim to defend true democracy, and export them to those who do not know the value of that starting from the following problematic: When democracy is the ideal space for others?

Keywords: *Crisis, democracy, cultural diversity, the other, Coexistence, liberalism, clash of civilizations.*

مقدمة

بادئ ذي بدء، تجدر الإشارة إلى ثراء مفهوم الديمقراطية من جهة، و إلى كونه لفظا مشتركا من جانب آخر، فإذا كان الكثير من الساسة والمفكرين يتحدّث عن الديمقراطية؛ فإنّ تصور هذه الأخيرة يختلف من مفكر إلى آخر، ومن تجربة سياسية معيّنة إلى واقع مُعاش آخر، فإذا كانت نظاما ذي ثلاثة أركان: الشعب هو مصدر السلطة في الدولة، والحرية والمساواة دون الإخلال بركن كما نادى بها فلاسفة اليونان على المستوى النظري؛ فإنّ التوجّه الاقتصادي والسياسي جعل اللاحقين إمّا أن ينادوا بالمساواة فقط، وإمّا أن يعطوا الأولوية لعنصر الحرية، فلاغرو إذن أن نجد أنفسنا إزاء نموذجين للنظام الديمقراطي، لا ديمقراطية واحدة.

1ـ الديمقراطية؛ التأسيس للحقوق والاعتراف بالغيرية

وبالفعل، يبدو لأجل الذي سلف أنّه من الضروري التذكيرُ بداية بأنّ تصوّرات الناس قد تضاربت حول الديمقراطية، إلى الحدّ الذي صار فيه كلُّ فريق منهم يدعو إلى تصوّر خاص يؤمنُ به ويدعوه ديمقراطية. ومع ذلك يمكننا التمييز بين مستويين من الخطاب حول الديمقراطية؛ المستوى النظري، وهذا الذي نتحدّثُ فيه عن كون الديمقراطية «نظاما سياسيا تكون فيه السيادة لجميع المواطنين لا لفرد، أو لطبقة واحدة منهم. ولهذا النظام ثلاثة أركان؛ الأوّل: سيادة الشعب. والثاني: المساواة والعدل. والثالث: الحرية الفردية والكرامة الإنسانية»[1].

ومهما يكن الأمر، فإنّ الديمقراطية في هذا المستوى النظري تبدو بالفعل الفضاءَ الأمثل للغيرية، ذلك لأنّها تقومُ على أساس اعتبار الناس كلّهم سواسية أمام القانون، وذلك رغم الاختلاف في القدرات الفردية، إذِ التفاوت بين الأفراد لا يمنعُ من تحقيق المساواة بينهم. وإذا كانت المساواة شرطا للديمقراطية، فإنها تعني بالتالي تساوي الفرص كونُها ترعى وتضمنُ التفاوتَ العقلي بين البشر، كما تضمنُ للمواهب الفردية حقَّ التميُّز والنمو.

وإذا كانت الحريةُ شرطا آخر للديمقراطية، فإنّها تعني هنا حرية العقل بالدرجة الأولى، أيْ حرية المعتقد وحرية الرأي والاجتماع لتبادل الرأي، واحترام الرأي الآخر والاعتراف به والتفاعل معه. وبالتالي فالديمقراطية أسلوبُ حياة يقوم على المساواة وحرية الرأي والتفكير، وتنطلقُ من فكرة أساسية مفادها أنّه ليس هناك فرد بلغ من الحكمة ما يجعله يعرف مصالحَ الآخرين ووسائل وسُبلَ سعادتهم وخيرهم أكثرَ منهم، وأنْ يفرضها عليهم بغير رضاهم. كما أنَّ كلّ فرد له الحقُّ في تحديد شكل النظام السياسي الذي يعيش فيه[2]، وبالتالي فإنَّ الإنسان الديمقراطي هو الذي يستطيع العيشَ في إطار المجتمع التعدُّدي بتقبّله لنمط حياة الآخرين، باعتبار أنَّ المجتمع التعدُّدي يمتاز بعدم وجود منظور جماعي واحد للخير والفضيلة. ولعلّ الديمقراطية من جانب آخر بإقرارها حقَّ الانشقاق في المجال السياسي وبصيّانتها لحق المعارضة تُمثّلُ فعلا المجالَ الرحب للاعتراف بالآخر، بل وحماية مبدأ الغيرية بصورة أمثل.

لأجل ذلك كان الخيّارُ الديمقراطي – فيما يبدو – هو الذي رجحَ في أوروبا كبديل للأنا الكنسي، ذلك الذي احتكرَ الحقيقة ونفى الغير فكريا وسياسيا ودينيا، إذ على النقيض تماما من ذلك يؤكد (آدم سميث) أنَّ جوهر النظرية الديمقراطية يكمنُ في الروح الرياضية، أيْ تقبُّل الرأيَ الآخر مهما كان نوعُه أو مصدره[3]. وحول تقبّل الرأي الآخر دائما في حيّز الديمقراطية، يقول (توماس جيفرسون): «أنا لا يضرُّني إنْ قال جاري إنَّ هناك عشرين إلها أو لا إله، إنَّ هذا لا يخرقُ جيبي ولا يكسرُ رجلي»[4]. ومن هنا يتضحُ أنَّ الديمقراطية لا تفرضُ على الفرد كيف يجبُ أنْ يعيش ويرى الحياة، وإنّما هي تدفعُ عنه العقبات التي تُعيقه، وتوفّرُ له سبُلَ التعبير عن هويته مع احترام ذوات الآخرين.

2ـ ديمقراطيات متعددة لا ديمقراطية واحدة

ولكن إذا تأكّد لدينا أنّ هذا المستوى النظري يقتضي تكاملَ تلك الأركان الثلاثة المذكورة، وأنّ الديمقراطية الكاملة لا تبلغُ غايتَها دون الجمع بين تلك الجوانب، اتّضحَ في المقابل الطابعُ المثالي للديمقراطية كفكرة ترجع أصولها إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وذلك لأنّه من العسير الجمعُ بين الحرية والمساواة معا، كما أنّه من المتعذّر تماما من منظور واقعي اعتبارَ إرادة الشعب كلّه مصدرا للسلطة، بل كلُّ ما في الأمر أنّها إرادةُ الأغلبية.

وبالفعل، ذلك الذي يؤكّدُه التطبيقُ المنقوصُ للديمقراطية في الواقع، وبالتالي ينْأى بها عنْ أنْ تكون الفضاءَ الأمثل للاعتراف بالحقوق فضلا على الإقرار بمبدأ الغيرية. فهناك أولا النموذج الاشتراكي الاجتماعي، وهذا في نظر "كارل ماركس" وأتباعه مثالُ الديمقراطية الحقيقية التي لا تفصل بين الدولة والمجتمع المدني أو بين الإنسان والمواطن،إذ من شأن هذا الفصل أنْ يولّد الاغتراب السياسي. وفي المجتمع اللا طبقي الذي تصبو إليه لا طبقية ولا دولة ولا صراع طبقي، وبالتالي فثمّة ديمقراطية حقيقية وليست صورية. إلا أننا نجد هذه الديمقراطية الاشتراكية رغم محاسنها الاجتماعية، تتجاهل الغير هي الأخرى بحيث يتلاشى، ليس الغيرُ فحسب، بل حتّى الهو أو الأنا في الـ " نحن" في ظل ديكتاتورية الدولة ونظامها الشمولي.

وثانيا النموذج الليبيرالي، وفيه يميز (تزفيتان تودوروف) بين الصورة الأوروبية التي هي وريثة الحضارة اليونانية التي وسمت الغيرَ بالبربرية وأنكرت أدبيّاتُها حقَّ المواطنة، بل وصفتَ الإنسانية للرقيق والمرأة، إذْ لم يكن كلُّ من ينتمي إلى الدولة يُعدُّ مواطنا، وإنّما ذلك المولودُ لأبوين أثينيين [5]. وسليلُ عصر الأنوار الذي انتهى إلى استعمار الآخر وتأكيد مركزية " الأنا الأوربية"، وبين الرؤية الأمريكية لليبيرالية،

وهي وإن كانت تشترك مع النموذج الأوربي الليبيرالي، إلاّ أنّها وريثة التطهير الثقافي والإبادة الجنسية للهنود، والتي انتهت بدورها إلى فرض عولمة متوحشة نشبت مخالبَها بادئ الأمر في كوريا والفيتنام، ثمّ تداعت غزواتُها إلى العراق وأفغانستان وغيرهما بمزاعم واهية أعجبُها تصدير الديمقراطية. وبمبرر تهديد "الآخر"؛ أعلن منظّروها عن صدام الحضارات فتولّدت الكراهية بين الأنا والغير، وعن نهاية تاريخ ذلك الآخر الذي يقضّ مضجعها. وهذا الليبيرالية الأمريكية هي التي عليها مدارُ مقالنا، ذلك لأنّ الذهن صار يتّجه مباشرة إليها عند الحديث عن الديمقراطية.

3ـ الديمقراطية الليبيرالية والتأسيس لثقافة رفض الآخر

وبالفعل، يبدو وكأنّ الديمقراطية استقرّت عند هذا النموذج الأمريكي الذي تحاولُ العولمة – وبالأحرى الأمْرَكَةُ – فرضه؛ ف (فرانسيس فوكوياما) الذي ارتبط اسمه بالمحافظين الجدد في الولايات المتحدة الأمريكية يعلن، بعد الحرب الباردة وسقوط جدار برلين وتحلّل النظم الشيوعية، أنّ تطور التاريخ البشري كصراع بين الإيديولوجيات انتهى إلى حد كبير مع استقرار العالم على الديمقراطية الليبرالية، وأنّه ليس بإمكان أيّ نموذج آخر أنْ ينافس أو يواجه أو يعارض تلك الديمقراطية. وهكذا يقرر فوكوياما من خلال كتابه (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) أنّ اكتساح الديمقراطية الليبرالية أرجاء العالم وانهيار الأنظمة الشمولية، وكذا انتصار فكرة الأسواق الحرة قد أوصد باب التاريخ وأدّى بالتالي إلى نهايته الأبدية التي لن يبرز في أفقها أيُّ مؤشّر جديد يُغيّرُه أو يؤدّي به إلى مسار جديد. فليس هناك من منظور فوكوياما أيّ عقيدة يمكن أنْ تواجه الغرب الديمقراطي الذي يفرض نفسه على العالم. وذلك يعني أنَّ التاريخ قد حسم صراعه الفكري ووصل إلى المثل الأعلى في الديمقراطية الليبيرالية الحديثة، من هنا تعزيز قيمة النموذج الليبيرالي الغربي كنموذج يجب الاقتداء به والانصياع لمفاهيمه وتصوراته المختلفة في الفكر والنظم والحياة. وفي ذلك يقول: «الديمقراطية الليبيرالية تشكل نقطة النهاية في التطور الإيديولوجي للإنسانية والصورة النهائية لنظام الحكم البشري وبالتالي فهي تمثل نهاية التاريخ »[6]، ومعنى هذا أنّ التاريخ يقود الإنسان بطريق أو بآخر إلى الديمقراطية الليبيرالية. ففي نظرية فوكوياما إذن محاولة لإنهاء التاريخ بسيطرة ليبيرالية من خلال الهيمنة الأمريكية.

ولكن مادامت الأنظمةُ المناوئةُ تسير نحو موتها المحتوم وفقا لنظرية نهاية التاريخ؛ فلا معنى لوجود الأنا الليبيرالي الذي يبدو وكأنّه يستمدُّ ذلك المعنى من نفي الآخر، وهنا يجب تصوّرَ الصراع بأنّه لا يزال حاضرا، وهكذا، وبقصْديّة وتكليف مباشر من الإدارة الأمريكية بصورة مستعجلة أثناء مشكلة الخليج وأحداث الحادي عشر سبتمبر، كتب (صمويل هنتغتون) (1927-2008) نظرية صدام الحضارات ينذرُ فيها بخطر المواجهة، ويدعو صراحة إلى الاستعداد للدفاع عن النموذج الحضاري الأمريكي الليبيرالي، وبالتالي يصبح تخصيص أموال طائلة للتسليح له ما يبرره. ولأنّ مُبرّر المدّ الشيوعي تَهافتَ في أفغانستان وسقوط جدار برلين وخدعة حرب النجوم، فإنّه ينبغي صنع عدو آخر يتهدّدُ هوية الديمقراطية الليبيرالية، تماما كضرورة اقتناء الطفل لدمية يسمحُ تحطيمُه إيّاها بالخروج من مرحلة اللا تمايز وإثبات هويته، وهنا ضربَ (هنتغتون) على وتر حساس؛ فصوَّرَ الخطرَ القادم خطرا أخضرا، أي إسلاميا في أغلبه. فباسم صراع الحضارات، يصوّرُ (هنتغتون) الآخر على أنّه مصدر الخطر الحقيقي الذي يُهدّدُ وجودَ الحضارة الأمريكية على الخصوص، ويخصُّ بالذكر الحضارةَ العربية الإسلامية، إذْ يعتبرها بمثابة المشكلة الأساسية، ولذلك وقف موقفا متشدّدا منها، كما رأى أنّها تقودُ إلى صدام حضاري عميق مع الحضارة الغربية. ولذلك أوصى (هنتغتون) بضرورة التحسُّب للإسلام، وبالتالي الحدّ من توسُّع القوة العسكرية للدول الإسلامية. واستغلال الخلافات والنزاعات بينها، ودعم المجموعات الحضارية الأخرى المتعاطفة مع القيّم والمصالح الغربية[7].

هذا، وليس الذي سلف سوى تنظيرا عدميا ينفي الآخر، وبُنية فوقية تعكس ممارسات سياسية تصدمُ مَن يسارع فيعتقد أنّ هذا المستوى الذي استقرّت، أو يُرادُ أنْ تستقر عنده تمثُّلات الديمقراطية في الواقع، هو الفضاءُ الأمثلُ للحقوق عموما وللغيرية على الخصوص؛ إذ الواقع أنّه قد رافقَ تاريخَ أمريكا منذُ الإبادات الوحشية لجنس الهنود والتطهير الثقافي للحضارة الهندية بإيعاز من (توماس مكولاي) مهندس سياسة التعليم الإنجليزية للمستعمرات الذي يقول: «لا أظنُّ أبدا أنّنا سنقهر هذا البلد ما لم نكسر عظامَ عموده الفقري التي هي لغته وثقافته وتراثه الروحي»[8]، ترسيخُ ثوابت منها عقيدة الاختيار الإلهي والتفوّق العرقي والثقافي، وكذا حق التضحية بالآخر.

ورغم أنه أمريكي الجنسية، يهودي الأصل، إلا أنّ (نعوم تشومسكي) الذي ينتقد بشدة السياسة الأمريكية في حلمها بالسيطرة على العالم، يكشف الأهداف الرئيسية للسياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، وكيف أنّه في سبيل تحقيقها تنتهك كل ما تنادي به من مبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان وحق تقرير المصير، وبعد تحليل للمجتمع الأمريكي المتعدد الأعراق والأديان، يبينُ أنّ مخططي تلك السياسة ليست سوى حفنة من محترفي السياسة وكبار رجال المال والإعلام[9]. وفي كتابه "ردع الديمقراطية" مثلا: يستنبط من الممارسة السياسية الأمريكية معنى الديمقراطية الأمريكية التي تناقض كل القيم الإنسانية، فالبيت الأبيض يعيش ديمقراطية طليقة في نهب الشعوب والاستبداد بها بواسطة أدوات بشرية وأنظمة يفرضها ويقدّم لها الدعم، ويعتبر البيت الأبيض أنّ كل مقاومة ضد الاستغلال هي ممارسة إرهابية[10]. و الخطير أن تلك الأقلية التي ينغّصُ عليها رغدَ العيش واحتكارَ خيرات

العالم مشاركةُ الآخر إيّاها، تسعى جاهدة إلى نفيه جسميا لا فكريا فحسب، فهي ترسم بدم بارد خططا لقطع دابر نسل ربع نساء العالم القادرات على الحمل، بينهن أربعة عشر (14) مليون ضحية أمريكية، والمرعبُ أنّ هذه المذبحة بلغت أوجها في عهد الرئيس الحالي باراك أوباما[11]، ولا شك أنّ في هذا تصديق لاعتراف وتنبؤ (وينونا لا دوك = Winona LaDuke) المرشحة لمنصب نائب رئيس الجمهورية عام 1996 حيث تقول: « ليس الهولوكست الأمريكي تاريخا مضى وانقضى، إنّه واقع يعيشه العالمُ، وإنّه خطر يهدّد مستقبل الإنسانية بمصير الهنود الحمر»[12].

ومن هنا يتضح كيف أنّ الواقع بات يشهد استغلالا للديمقراطية بشكل منحرف، وأصبحت هذه الأخيرة غطاء وستارا للعديد من الجرائم الدولية، حيث تحوّلت إلى قناع لارتكاب أفعال فاسدة باسمها، الأمرُ الذي يؤسّس لأطروحتنا ويبرر تشكيكنا الذي انطلقنا منه؛ ففي نظام يشتري فيه الموسرون الحكومات لا يقتصر إنكارَ الآخر على من هو أجنبي، وإنّما حتى الضعفاء من الأمريكيين ذاتهم، فلقد بينا أنّ من ضحايا مخطط الإبادة الجنسية نساء أمريكيات كذلك، وممّا انكشف للعيان بعد سيناريو الانتخابات الديمقراطية وحق الآخر في التصويت والمعارضة، أنّه قبل خمسة أشهر من انتخابات عام 2000، تخلّص (جيب بوش) حاكم فلوريدا من 57.700 شخصا من قائمة المصوّتين بدعوى أنّهم مجرمون، والحقيقة أنهم ليسوا مجرمين البتّة، بل حُرموا من ممارسة حقّهم لكونهم زنوجا[13]. وعليه فالتاريخ يبدو كأنّه يراوح مكانه، ولا فرق إطلاقا بين هذا التمثّل الناقص والديمقراطية في اليونان القديمة على أرض الواقع.

لأجل ذلك عوّضت "الكراهيةُ للديمقراطية" الشغفَ بها عند الناس، وظهر جليا أنّ الغرب عموما لم يعد من حقه التغنّي بأمجاد وفضائل الديمقراطية، وهذا بعد أنْ انكشفت تناقضاتها مع ويلات الاستبداد الشمولي الذي مارسه ولا يزال يمارسه الغرب، وبعد أن اتّضح أنّ تلك الديمقراطيات الغربية تعملُ على نشر ديمقراطيتها بقوة السلاح، كما يوضّحُ المفكر السياسي (جاك رانسيير) المولود سنة 1940 بالجزائر في كتابه (كراهية الديمقراطية)[14].

4- الديمقراطية من الاختلاف الثقافي إلى البحث عن المشترك الإنساني

لقد لاحظ ذلك الكثير من المفكرين، ونادى منهم (روجي غارودي) مثلا بحوار الحضارات في مقابل صدام الحضارات، وهنا يفضحُ الوهمَ القائل بأنّ الغرب وحده هو مبدعُ القيم الإنسانية، وهو زعم قائم على أسطورة المركزية الأوربية ورفض الآخر الحضاري، هذا الأخير الذي عانى من ويلات العمل على إعدامه كجنس، ونفيه ثقافيا[15].

وفي محاولته للإجابة عن السؤال: كيف نصنع المستقبل؟[16] بيّن غارودي ما يعيشه العالم من قلق ناجم عن مرحلة تاريخية اعتقد فيها الغربُ أنّه الشكلُ الوحيدُ للثقافة والحضارة، وسعى إلى دحضها وبيان موقع الغير غربي ومساهمته. كما أنّه انتهى في (أصول الأصوليات) إلى أنّه لم يعدْ لنا خيار سوى بين التدمير المتبادل للهويات والحوار، وبواسطة الحوار فقط نكشف القيم المطلقة كشفا مشتركا. وفي سبيل ذلك يجب تدمير « نحن نشتمل على كل شيء»[17].

ولكن في نظرنا أبرزُ من لاحظ ما وقفنا عليه من عوائق تسدُّ أفقَ الغيرية في ظلّ الديمقراطية، وقدّمَ حلولا لتجاوز ذلك، مع تحديد الشروط التي تجعلُ من الديمقراطية الفضاءَ الأمثلَ للغيرية بصورة شاملة، صاحبُ كتاب (تأملات في الحضارة والديمقراطية والغيرية) الفيلسوف الفرنسي (تزفيتان تودوروف) ذي الأصل البلغاري (ولد سنة 9319 بصوفيا)؛ والذي تركّز اهتمامُه حول قضايا مثل غزو الأمريكيتين ومعسكرات الاعتقال النازية والستالينية، وتوالت كتاباتُه عن الآخر والدفاع عنه، فهو عندما خصّصَ كتابا للفيلسوف الروسي ميخائيل باختين، إنّما «لأنّ الهاجس الذي يستحوذ على فكر باختين هو العلاقة بين الأنا والآخر من خلال تفاعل حواري لا ينقطع»[18] كما يبرّرُ الاختيار. وعندما نقرأ في كتابه (روح الأنوار) دفاعَه عن مواطن عراقي مات تحت آلة التعذيب الأمريكي في سجن أبي غريب[19]، نستحضرُ مفكري عصر الأنوار ونزول (فولتير) إلى الشارع ليرفعَ الظلم عن مواطن بسيط أُتُهمَ زورا حتّى يُرغمَ على اعتناق الكاثوليكية.

إنّ تودوروف الذي كتب الخوف من البرابرة: ما وراء صدام الحضارات، والفوضى العالمية الجديدة، وتأملات مواطن أوروبي، وأعداء الديمقراطية الحميميون، وقيم الحب، واحترام الآخر و حول التنوع الإنساني يعملُ على:

أ- دحض مقولة التفوّق الحضاري للغرب التي تعيد إلى الأذهان صورة الرجل الأبيض الذي يجاهدُ لتمدين الآخر البربري ونشر الحضارة. ويهاجم الأصواتَ المتطرفة في الغرب التي تُعادي ذلك الآخر وتصطنعُ الخوفَ منه، ذلك لأنّ « الخوف يتحول إلى خطر على الذين يعانون منه (...) إنّ الخوف من البرابرة هو الذي يُخشى أنْ يُحوّلنا إلى برابرة» [20] مثلما يقول مخاطبا الغرب في موقفه من الآخر، خصوصا العالم الإسلامي.

ب- انتقاد الغرب والعالم أجمع في خطاباته المنافقة عن الديمقراطية والتحاور البشري، وكذا انتقاد جرائم الجيش الأمريكي بقسوة في غزواته للعراق وأفغانستان بمزاعم واهية، وهو بذلك ينتقدُ الديمقراطية الأمريكية في الحقيقة، ذلك النموذج الذي زعمَ فوكوياما أنّه لا يوجد نموذج آخر ينافسه، مبيّنا أنّ ما أغفله صاحبُ نظرية نهاية التاريخ كونَ الديمقراطية تلك أفرزت بممارساتها أعداءها الجدد، الأعداء الحميميين الذين ولدوا من اختلالاتها وهم: المسيحية السياسية التي تزعم بأنّها خلاصُ العالم، في حين ترتكب أفعالا مشينة وشريرة باسم الخير وفي ظل الديمقراطية. والليبيرالية المتطرفة التي تعود أصولها إلى مفكرين أمثال جون لوك وجون

ستيوارت مل ودافيد هيوم حيث الاهتمام بالفرد على حساب الجماعة. وثالثا الشعبوية التي تنتهج التضليل بواسطة الإعلام.

ج- الرد على نظرية صراع الحضارات من خلال كتابه (الخوف من البرابرة، ما وراء صدام الحضارات) وفيه دعا إلى التحلّي بالتسامح مع الآخر والتعايش مع مختلف الثقافات، ففكرة الصدام والصراع بين الحضارات التي يطرحها (هنتغتون) تتنافى والديمقراطية الحقة التي يدعو إليها الغرب، والتي ينبغي أنْ تكون فضاء للتعايش مع الآخر. ولذلك قام (تودوروف) بالرد على هذه النظرية التي تصنّفُ الشعوبَ وحضارات العالم وفق معيار ديني، يُرسّخُ الخوفَ من الآخر، ويوقظ هواجس الرعب والحذر منه.

وبالتالي فبدل فكرة الصراع التي ذهب إليها (صمويل هنتغتون)، يدعو (تزفيتان تودوروف) إلى احترام الثقافات الأخرى والاعتراف بالغيريات، بحيث لا يجب أن يكون التنوع والاختلاف عائقا أمام التعايش. معتبرا في الوقت ذاته أنّ كل حضارة لا تتجدد ولا تتغير ثقافتها هي حضارة ميتة، وعليه فإنّ بناء جسور الحوار بين الأفراد، واحترام تعدد الثقافات والهويات في ظل الاعتراف بالغير هو أساس كل حضارة ترتكز وتُبنى على مفهوم حقيقي للديمقراطية. إذْ يقول (تودوروف): «لكي نتآلف ونتكيّف مع تعقيدات العالم ونتجاوز الصعوبات، يجب أن نتخطّى مقولة صدام الحضارات لنقوم بالتفكير في أنموذج يضمن تنوع الخصائص الثقافية، ويساهم في بناء نزعة عالمية كفيلة باستيعاب الاختلافات ودعم تقدُّم الحضارة ورقيها »[21].

ولقد تصدّى (تودوروف) لكل الآراء التي تصفُ المسلمين بالبربرية، معتبرا أنّ الديمقراطية الحقة هي تلك التي تقوم من خلال الاعتراف بالإنسانية الكاملة وبالتعدد الثقافي والخصوصية الثقافية للآخرين، كما أنّ الحضارة تقوم إجمالا على الانفتاح على الآخر، لا على الانغلاق والتقوقع[22].

هذا، وإذا كان من المفيد معرفيا الإشارة إلى أنّ (تودوروف) هو المفكر الأكثر تأثيرا في مفاهيم الغيرية والتعايش الإنساني، في فترة تتكاثفُ فيها الحدود الفاصلة بين الهويات رغم الانفتاح الذي يفرضه زمنُ العولمة، الأمرُ الذي يشجّعنا على التوسع في بحث أفكاره؛ إلاّ أنّ مقتضيات المداخلة الزمنية تجعلنا نكتفي باستنباط ما يجيب على مشكلتنا من أعماله الكثيرة، فتودوروف ينادي بـ :

1- ضرورة خلق الجسور بين الشعوب والحقول المعرفية بدل هدمها وإدانتها

2- البحث عن المشترك الإنساني بدل إقامة مثل تلك الحصون المرسّخة لفكرة الخوف من الآخر، فذلك خوف سيجعلنا برابرة لاعتقادنا أنّ الآخرين برابرة كما سلف بيانه

3- إعادة هيكلة المجتمع وإذكاء النزعة الإنسانية بالرجوع إلى الديمقراطية الحقة التي نادى بها مفكرو عصر الأنوار

4- تحرير الديمقراطية من أعدائها الليبراليين المتوحشين.

5- الحياة المشتركة وتعايش الهويات

6- الاعتراف بالآخر دون الرغبة في نفيه.

7- تحريرنا من الخوف من الأديان والأقليات الثقافية.

8- التعايش مع الثقافات المختلفة.

خاتمة

وختاما يمكننا أنْ نقرر أنّ الديمقراطية على المستوى النظري لا تعتبرُ الفضاء الأمثل للغيرية فحسب، بل الأسلوبَ في الحياة الذي تشرئبُ له النفوس التوّاقةُ إلى الحرية والعدالة الاجتماعية، مقارنة بغيرها من فضاءات أنماط النظم الاجتماعية والسياسية الوضعية. ولكن في الواقع العملي اصطدامُ تلك القيّم التي تدعو إليها بالفردية والأنانية، يجعل الهويات تتأرجحُ بين تنازع الميول الغيرية والميول الأنانية، فلا هي تميل إلى الأنا دائما، ولا هي ترجح كفّة الغيرية بصورة مطلقة، إنما هي مشروطة بمدى إدراك الطرفين للحاجة إلى الآخر، وبالرغبة في التعايش معه.

الهوامش

1- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د ط، 1982، الجزء الأول، ص: 570

2- جون ديوي، الديمقراطية والتربية، ترجمة منى عفراوي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، بغداد، ط1، 1954، ص: 24.

3- محمد أحمد علي مفتي، نقد الجذور الفكرية للديمقراطية الغربية، مكتبة الملك فهد، الرياض، ط 1، 2002، ص: 22.

4- المرجع نفسه، ص: 23

5- محمد عبد المعز نصر، في النظريات والنظم السياسية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، لبنان، د ط، 1981، ص: 163.

6- محمد سيف حيدر، نظرية نهاية التاريخ، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، د ط، 2007، ص: 49.

7- Huntington, Samuel, Le choc des civilisations, Odile Jacole, Paris, Avril 2007. P: 191.

8- منير العكش، أمريكا والإبادات الثقافية، رياض الريس للكتب، بيروت، ط1، 2009، ص: 13.

9- نعوم تشومسكي، ماذا يريد العم سام؟، تعريب عادل المعلم، دار الشروق، مصر، ط1، 1998.

10- المرجع نفسه، 1992.

11- منير العكش، أمريكا والإبادات الجنسية، رياض الريس للكتب، بيروت، ط1، 2012، ص: 07.

12- المرجع نفسه، ص: 9.

13- غريغ بالاست، أفضل ديمقراطية يستطيع المال شرائها، تعريب مركز التعريب والترجمة، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2004، ص: 7.

14- جاك رانسيير، كراهية الديمقراطية، ترجمة أحمد حسان، دار التنوير، بيروت، ط1 ، 2012

15- روجي غارودي، حوار الحضارات، تعريب عادل العوا، عويدات للنشر، بيروت، 1999

16- روجي غارودي، كيف نصنع المستقبل؟ ، ترجمة منى طلبة، دار الشروق، مصر، ط3، 2002.

17- روجي غارودي، أصول الأصوليات والتعصبات السلفية، مكتبة الشروق، مصر، 1996

18- تزفيتان تودوروف، ميخائيل باختين ومبدأ الحواري، ترجمة فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1996، ص: 17.

19- تزفيتان تودوروف، روح الأنوار، ترجمة حافظ قويعة، دار توبقال للنشر، تونس، ط1، 2007.

20- تزفيتان تودوروف، الخوف من البرابرة: ما وراء صدام الحضارات، ترجمة جان ماجد جبور، كلمة للثقافة والتراث، أبو ظبي، ط1، 2009، ص: 12.

21- تزفيتان تودوروف، روح الأنوار، ص : 46

22- المرجع نفسه، ص: 148